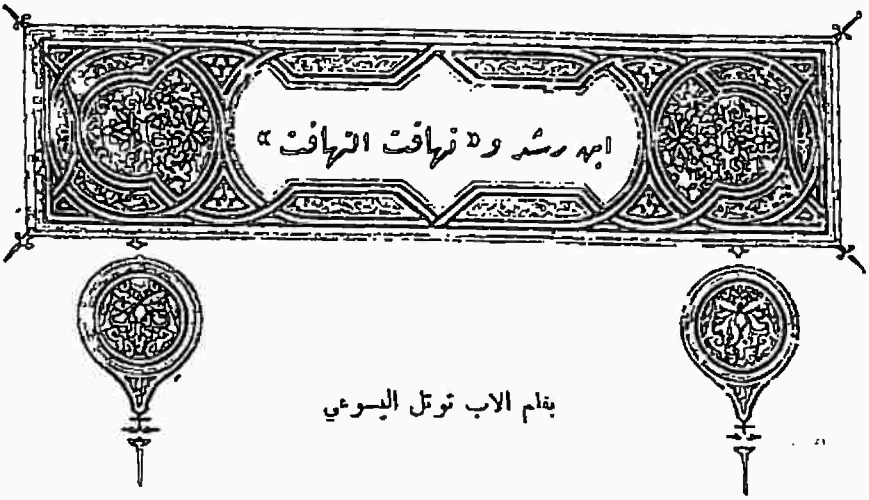

بقلم الاب توتل اليسوعي

فرار الفلاسفة العرب المدرسيين

اي المدرسيين او « السكولاستيك » (*Les Scolastiques*) بالاصطلاح الفلسفي التاريخي هم فلاسفة القرون الوسطى . دُعوا بهذا الاسم لمكفهم على الدرس باساليب مخصوصة بمدارسهم ، اصولها التفسير والشرح : في تعليم الصرف والنحو ، والبيان ، والخطابة ، والهيئة ، والفلسفة الارسطاطالية . كيف بلغت الى الافرنج كتب ارسطاطاليس ؟ هل قرأوها بمتنها اليوناني ، او منقولةً الى غيرها من اللغات ؟ هذا مشكل لم يحل بعد بالتمام ، ولكن ما لا ريب فيه ان الفلاسفة المدرسيين الافرنج ، وكبيرهم القديس توما اللاهوتي ، قرأوا ارسطاطاليس على الفلاسفة العرب وبالخصوص على الفيلسوف ابن رشد ، شارح ارسطو الشهير « *Commentator* ».

ان القرون الوسطى كانت عصر الفلسفة العربية الذهبي ، وفيها سطع نور المفكرين العظام كالكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد . وهؤلاء بعد ان اخذوا عن السريان المسيحيين معربات مؤلفات اليونان ، اعملوا فيها الرويّة ودرسوها ودرّسوها وافادوا بها الافرنج ، فحلّوا في تاريخ الفلسفة العام مقاماً لا يزال يعلو ويرتفع في اعين الباحثين في معرفة العلائق الرابطة بين المدرسيين اللاتين والمدرسيين العرب . فلذلك قد اشرأبت اعناق الافرنج من مؤلفي تاريخ فلسفة القرون الوسطى وطلّابها

الى مطالعة كتب الفلاسفة العرب ، ليس فقط في المجلدات اللاتينية الضخمة ، النادرة الوجود ، المستعجم فهمها لما في ترجماتها من المغالط والمقامض ، البعيدة عن الوفاء بما يقتضيه البحث العلمي العصري في النشر ؛ ولكن على قراءتها والرجوع اليها في متنها العربي الاصلي .

ومن هؤلاء الغيُر على رقي العلوم الفلسفية الكردينال اهرله اليسوعي ، وقد قضى اربعين سنة ينا شد المستعربين القيام بنشر كتب فلاسفة العرب ، ومثله المرحوم الاب مرسل شرفا اليسوعي ، استاذ الفلسفة المدرسية وجامع موادّ تاريخها . فقد طالما استحثّ هم تلامذته المتضلّعين من اللغة العربية على السعي في بعث مؤلفات فلاسفة العرب الى عالم النور ولكن المنية حالت دون الاستاذ ورؤيته تحقيق رغائبه . على ان فكرته لم تمتْ ، وها انها تتحقق على يد احد تلامذته ، حضرة الاب موريس بويج اليسوعي اذ شرع بنشر خزانة الفلاسفة العرب (*Bibliotheca Arabica Scolasticorum*)

وليس المشروع ليهمّ رجال الفلسفة المدرسية فقط بل عامة المستشرقين ايضاً ، لانهم اذا نسوا او تجاهلوا هذه الناحية من انحاء الادب العربي اهملوا استنباط كنز ادّخره للخلف جهدُ الاوائل ، وقطعوا حلقة من السلسلة الرابطة القديم بالحديث ، فضربوا صفحاً عن اعزّ امجاد العرب .

واذاك ، لما عرض الاب بويج فكرة نشر خزانة الفلاسفة العرب المدرسيين ، على مؤتمر المستشرقين السابع عشر ، المنعقد في اوكسفرد سنة ١٩٢٨ ، واعلن عزم المطبعة الكاثوليكية على القيام بالمشروع ، واستنجد عليه بتشجيع المؤتمرين ومؤازرتهم ، لم يرَ منهم الا الاستحسان والموافقة باجماع الآراء على رأيه . وكان قد اظهر سنة ١٩٢٧ اول مجلد من « الخزانة » وهو الحلقة الثانية من سلسلتها : كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي[1] فلفت انظار المستشرقين وحلّ محلًا رفيعاً في وصف المجلات العلمية فأطرأوا كتاباته وحيّوا به طليعة عهد تجدّد في درس الفلاسفة العرب . وها ان الحلقة الثالثة من « الخزانة » ظهرت العام الماضي وهي كتاب ابن رشد « تهافت التهافت » .

١) راجع المشرق (٢٥[١٩٢٧]٦٢٢)

ولما كانت النهضة الحديثة قد استهلت الناس في البلاد العربية الى مطالعة روائع الادب ليس فقط في الشعر والتاريخ ولكن في الفلسفة ايضاً، وكان حظ لبنان من هذا التجدد المبارك اوفر من حظ غيره اذ انه خصص سنة كاملة من المادة العربية في برنامج البكالوريا لدرس فلاسفة العرب، كانه بهذه العناية المفيدة اراد أن يعوض على مفكري العربية العظام ما نالهم من الحيف من تناسي الايام جهودهم ومحامدهم ، اصبحت كل فرصة للكلام في ذلك الموضوع الخطير، مقبولة وفي اوانها كالزهرة في ربيعها. وقد يستحسنا انتهاز تلك الفرصة، والكتب العربية الحديثة في هذه الناحية من المعارف لا تزال نادرة ، قاصرة ؛ والكتاب الظاهر حديثاً الذي عنينا بوصفه جدير بان يوفى حقه من الاعتبار والدرس.

تهافت التهافت

في السنة ١٠٩٥ اتم الغزالي كتابه « تهافت الفلاسفة » وقد رد فيه على ما رآه في تعاليمهم غير موافق للحقيقة . فانكر عليهم قولهم بقدم العالم وابديته وتلبيسهم ، او وضعهم موضع الشك ، ان الله هو خالق العالم وقال انهم ، اذا اعتقدوا وجود العالم منذ القدم ، اضطروا الى القول بوجود مبدأين ازليين او اثنين. . . الى غير ذلك من المسائل التي بلغت عدد العشرين (راجع قاموس فرنك الافرنسي الفلسفي في مادة « غزالي ») . فلما بلغ مؤلف الغزالي الى الغرب اضطرب له فلاسفتها ، واشهرهم ابن رشد القرطبي . فتناول الكتاب وعرضه على محك النقد الدقيق ورد عليه بكتاب آخر ، عنونه « تهافت التهافت » وهو الذي نعنى به الآن.

وسكت الرأي العام الاسلامي عن ظهور كتاب ابن رشد وتناساه. وسدل اكثر مؤرخي الآداب العربية حجاب النسيان على اسمه واسماء غيره من ائمة الفلاسفة المسلمين ، ولم يذكره الحاج خليفة الا تلميحاً في سياق كلامه على الغزالي . اما الافرنج فقدروا الكتاب حق قدره ونقلوه الى اللاتينية والعبرية وطبعوه. ولم تظهر طبعته العربية لاول مرة الا في مصر ، في المطبعة الاعلامية ،

سنة ١٨٨٥ . وهيأت ان تفي الكتاب حقه من الاتقان الذي لا غنى عنه لادراك صميم افكار الفيلسوف . وتلت تلك الطبعة طبعات عربية غيرها منها واحدة في المطبعة الخيرية (١٩٠١-١٩٠٢) واخرى لمصطفى البابي الحلبي (١٩٠٤) وما كانت لتروي غليل رواد الفيلسوف الكبير ، من مطالعته بالسهولة المرغوبة والاسلوب العلمي الكامل . فكانت الحاجة ماسة الى الطبعة التي نحن في صددها .

طبعة الاب بويج

درس الاب بويج العبرية واتقن العربية ، وتضلع من الفلسفة المدرسية ، واعدّ ترجمة افرنسية لكتاب « تهافت » الغزالي و« تهافت التهافت » لابن رشد ، ومهّد السبيل الى الاحاطة بموضوعه من سائر وجوهه في المقالات التي نشرها في « ابحاث كلية القديس يوسف » (*Mél. Fac. Or.* T. III, VII, VIII, IX) فضلاً عن طبعته لتهافت الغزالي العربية (سنة ١٩٢٧) . وجال في مكاتب اوربة والشرق مفتشاً عن المخطوطات الواجب الاعتماد عليها للقيام بمهمته . ولما ادرك مناه طبع كتابه « تهافت التهافت » وهو مجلد ضخم ، قطعه مثمن كبير ، عدد صفحاته ٧٠٠ ونيف ، اظهرته المطبعة الكاثوليكية في بيروت ، خلال العام ١٩٣٠ ، وهو الثالث من « خزانة الفلاسفة العرب المدرسيين » .

صدّره الناشر باربعين صفحة عرّفنا فيها بابن رشد ومنزلته ، وطريقة معالجته المشاكل الفلسفية في ردّه على الغزالي ، ومكانة كتابه « تهافت التهافت » في الفلسفة العربية . واثبت حقيقة نسبته الى مؤلفه ، ومال الى تأريخ صدوره قبل السنة ١١٨٠ م ؛ وللكتاب في المخطوطات القديمة شتى العناوين ، فاختار الناشر اسم « تهافت التهافت » دون غيره ، وهو المرسوم على نسخة قديمة والمنقول الينا بالترجمات اللاتينية والعبرية ، والاحرى بغرض مؤلفه ، والاكثر شيوعاً في المؤلفات الموضوعة على ابن رشد .

اما الوثائق التي اخذ عنها الاب بويج متن الكتاب الاساسي فمنها العربية ومنها الاعجمية . فمن العربية المخطوطات ، واهمها ثلاثة في القسطنطينية : الاول

وسمته I (عدد ٧٣٩) في يكني جامع وتأريخه في سنة ١٥٣٧م ٩٤٣ه، والثاني وسمته A (عدد ١٥٨٢) في مكتبة شهيد علي باشا وتاريخه في سنة ١٥٥٩م ٩٦٦ه، والثالث وسمته T (عدد ٢٤٩٠) في مكتبة لالي جامع وتاريخه نحو ١٧٠٠م ؛ وغيرها. ومن المطبوعات طبعة القاهرة ١٨٨٥م ١٣٠٢ه وغيرها، وبعض ما رُوي عن ابن رشد عرضاً وأُدرج في كتب غيره وساعد على اثبات متن «تهافت التهافت».

ومن المصادر الاعجمية الترجمات العبرية فانها على جانب عظيم من الاهمية. وقد تقوم مقام المتن العربي لصدق نقلها وامانتها، ويرقى عهدها الى القرن الرابع عشر، والترجمة اللاتينية القديمة وهي منقولة مباشرة عن العربية... اما غيرها فقد نقل عن العبرية.

هذه الوثائق وغيرها من نصوص «تهافت التهافت» الواردة عرضاً في روايات كتب الفلسفة، راجعها الناشر واعمل فيها الروية ونشر عنها متن الكتاب معلماً في كلّ صفحة من صفحاته بالعلامات التي اصطلح عليها والقارئ كل المواضع المفيد الانتباه لها، باذلاً قصوى الجهد في الكشف على متن الكتاب الاصلي عسى ان يستعيض به القارئ عن نسخته الاولى الضائعة.

ولم يتكلف الناشر مؤونة النشر فقط، بل فتح ايضاً لرواد كتابه مجالاً لمباحث واسعة واخذ على عاتقه ان يدلّهم عليها متتناً فهرست المسائل، مميزاً بنودها بانتقاء حروف المطبعة وتنويعها لفتاً لنظر القراء اليها، ووضع الجداول، هداية الى المقابلة بين «تهافت» الغزالي وردّ ابن رشد عليه، والى معرفة الاعلام واسماء الكتب الوارد ذكرها، واهم القضايا التي عالجها كل من الغزالي (وهي ٨٨١) وابن رشد (وهي ٨١٥) مع قاموس معاني الالفاظ الفلسفية، ولائحة القواعد او الشواذات النحوية الخاصة بابن رشد ومعجم المواد العام مرتباً باللغة والابجدية اللاتينية مسهلاً بذلك مراجعة الكتاب لطلابه الافرنج المدرسيين.

اما بعد، وقد تعرفنا الى الكتاب في ظواهره، فهلمّ نكشف على لبابه ونستشع من نبراسه شعاعاً يرشدنا الى البحث في امهات مشاكله. ان مجال مقالنا اضيق من ان نطمح الى استيعاب الموضوع، وهو النقطة المركزية لدائرة العلوم

الفلسفية منذ نشأتها الى يومنا ، ولكن الفرصة سعيدة فمن الحيف ان تفلت.

فحوى الكتاب وموقف ابن رشد تجاه الغزالي

وقد يمكننا ضمّ العشرين مسئلة الموضوعة على بساط البحث بين الغزالي وابن رشد الى ثلاثة فصول شاملة : اولها يعني امر انشاء العالم (المسئلة ١) والزمان والحركة ، والمصير (٢) ، والبحث في هل للعالم نهاية اولا فنتعمق بمعرفة فاعل العالم (٣) ووجوده (٤) وصفاته (٥) وعلاقاته مع العالم(٦-١٥)، وعلمه وتدبيره (١١-١٤) . اما الفصل الثاني ، فيبحث في النفس وروحانيتها وخلودها (١٨-١٩). والفصل الثالث الاخير يخص المسئلة العشرين بحشر الاجساد . وهناك في الكتاب مباحث شتى في السماوات والافلاك وتأثيراتها في عالم البشر وعقولهم . (١٥-١٧)

وان هذه المسائل لأهم ما يشغل فكر المفكرين ؛ وعليها دار الجدال بين ابي حامد وبين ابي الوليد . ولا شكّ انك لاول نظرة تحيّزتَ الى الغزالي، الإمام الورع التقي ، وقلت لا بد انه مدافع عن الحق، فامسى خصمه خصمك فمقتت ابن رشد وفلسفته.

ولعلّ ناحياً وحدك هذا النحو من التطرّف لان ابن رشد صار على مدى الايام هدفاً للمناقضات ، كما قلنا ، فلا بد ، اذن ، من كلمة على حقيقة مذهبه الفلسفي قبل الاقبال على قراءته.

قلنا ان ابن رشد اختصّ بدرس الفلسفة الارسطاطالية وشرحها . واننا نعلم ان ارسطاطاليس كان استاذ المدرسيين الاوحد في القرون الوسطى وانهم قرأوه في الغالب على شارحه العربي . فعالجوا مسائل خلق العالم ومصيره وامر الثواب والعقاب في ظل ابن رشد تارة مستأمنينه، وطوراً خارجين عنه ، فتناقشوا في مواضيع اقواله وذهبوا فيها شتى المذاهب، حتى زاغ بعضهم عن الحق والجأوا رجال الدين الى التدخل في امور تعاليمهم الفلسفية والتحذير عليهم شر ما ضلّ من آرائها المفسدة النفوس . كيف لا والبعض من المبتدعين فرّطوا الى ان وضعوا موضع الشك امر وجود الله وخلود النفس والثواب والعقاب ، ناقضين

مبادئ الدين والعقل السليم ، وهم في ذلك محتجون باسم ابن رشد . فجرّوا عليه تبعة الكفر والالحاد ، وهو براء مما يتهمونه به لانه لم يتطرف الى ذلك الحد . هذا ما بيّنه رينان في كتابه على ابن رشد « والرشدية » (*Averroès et l'Averroïsme*) لكنه لم يسمح عن ذكرى الفيلسوف العربي وصمة الافراط بتفضيل المعرفة العقلية الطبيعية على المعرفة المأخوذة من كتب الوحي . وجاء المحدثون ، فاعادوا النظر في فلسفة ابن رشد وتأثيراتها . ومنهم من نحا نحو رينان[1] مثل مونك ودي بوير ؛ ومنهم من خالفه ، كجهرن وأسين بلاثيوس ؛ فانهما نسبا الى ابن رشد تفضيل المعرفة الدينية بالوحي على المعرفة العقلية الطبيعية . وجاء اخيراً غوطيه (Gauthier) ففصل في الجواب فصولاً وقال في كتابه على « نظرات ابن رشد في التوفيق بين الدين والفلسفة » (ص ١٨١) ما خلاصته : يتساءلون كيف كان موقف ابي الوليد تجاه الوحي وتجاه العقل . هل خفض من مكانة الدين او من مكانة الفلسفة ؟ ومضى غوطيه مفتشاً عن الحقيقة لا في اقوال مبتورة عن قرائنها ، متضاربة المعاني ، ولكن فيما رآه مفتاحاً اخذه العرب عن اليونان واقبلوا يفتحون به ابواب الوصول الى التوفيق بين العلم والايمان والفلسفة والدين وانما هو في نظره ، التعليم على « الاقاويل » الثلاثة . وقد يفيدنا معرفته عسى ان نستعين به على قراءة « تهافت التهافت » . قال :

« ان مؤرخي الفلسفة الاسلامية اجمعين ، لما درسوا ، في ابن رشد وسائر الفلاسفة زملائه ، امر العلاقات بين الفلسفة والدين لم يقدروا حق قدرها التصوّرات الاساسية التي اتفق عليها الفلاسفة العرب اجمعين . ان العرب بعد اليونان قسموا الاقاويل او الاقيسة في الجدال الى ثلاثة انواع ١ً القول اليقيني او البرهان ، وهو المولد اليقين في عقول الفلاسفة عند اخذهم مقدمات القياس المنطقي عن التعليم العقلي ، بغض النظر عن تعليم ديني . ٢ً القول الاقناعي وهو المتوخي رضى العقول التي هي دون عقول الفلاسفة مقدرة وفوق عقول العامة طاقة ، وهم الفقهاء وعلماء الشريعة ومفسرو كتب الدين ، بالقياس الآخذ احدى

---

١) ومنهم فرح انطون في كتابه على ابن رشد وفلسفته . قال (ص ١٢٢) : ان ابا الوليد « يجعل الدين تابعاً وخادماً للعلم يؤوّله كما يشاء ويفسره كما يجب »

قضيتيه من تسليم الوحي، وان هذا القول كافٍ لاقناع الفقهاء وامثالهم. و٣ القول التصديقي وهو الآخذ مقدمتيه من حالة المخاطب العقلية وعواطفه واستعداده الى قبول النتيجة المرغوب فيها والكافية لحياته العملية وهي ان يصدق قول العلماء والفقهاء والخطباء وشروحهم ويرتاح لها ويعمل بموجبها»[1].

وقد نبه ابن رشد الى هذا التقسيم في صدر كتاب « تهافت التهافت » اذ قال ان غرضه ان يبين مراتب الاقاويل المثبتة في كتاب التهافت (للغزالي) في التصديق والاقناع وقصور اكثرها عن مرتبة اليقين والبرهان.

فمن ثم يتضح ان ابن رشد نقد الغزالي لا حطاً من مكانة الدين وتعاليمه ورجاله ولكن انتصاراً لمبادئ رآها اساساً لدرس الفلسفة.

وفي جملة ما لام عليه ابا حامد انه حاول تقريب مناهل الحكمة الى عقول العامة فلامه على ابتذاله الفلسفة، وودّ لو بقيت سلطانة العلوم محصنة في برجها العالي فلا تنصرف اليها الا العقول السامية.

وعسى ان تتجلى لنا الحقيقة باجلى تبيان فنعود ونبحث في مسألة قِدَم العالم ونسمع مناقشة ابي الوليد ابا حامد عليها، في عدد آتٍ ان شاء الله !.

---

١) راجع المشرق : (٢٩[١٩٣١]١٩١، ١٩٢) ، حي بن يقظان وفلسفة ابن طفيل.